ظاهرة شعر الكدية
في القرن الرابع الهجري

الدكتور ـ عناد اسماعيل الكبيسي
المدرس في قسم اللغة العربية

الكدية ظاهرة اجتماعية أوجدتها ظروف القرن الرابع الهجري ، وما كان لها ان تظهر في غير هذا العصر ، لاسباب سنمر بها سريعا في ثنايا هذا البحث ، ذلك لان جل اهتمامنا سيكون منصبا على دراسة هذه الظاهرة من خلال الشعر ، وعلى الخصوص من خلال القصيدة الساسانية لابي دلف الخزرجي ، تلك القصيدة التي حفظها لنا الثعالبي في يتيمة الدهر ، معلقا عليها بقوله « وهذا ما اخترته من القصيدة الساسانية التي أولها » :

جنون دمعها يجري لطول الصد والهجر[1]

وظاهر من قول الثعالبي ان للقصيدة ابياتا أخرى ، عزف عنها ولم ينقلها ، وانما اكتفى برواية الابيات التي ذكرها في اليتيمة وتقرب من مائتي بيت ، وهي على ما نرى طويلة اذا قورنت بالشعر العربي ، وقد حوت هذه القصيدة الشيء الكثير عن اخلاق المكدين وتصرفاتهم والطريقة التي بها يعيشون . ويذكر محقق اليتيمة الآخر الاستاذ علي محمد عبداللطيف[2] أنه قابل هذه القصيدة بأخرى خطية في دار الكتب المصرية فلم يجد فيها اختلافا عن تلك التي رواها الثعالبي ، ولكي نكون أكثر دقة ننقل الهامش بنصه « حاولنا ان نعثر على القصيدة الساسانية كاملة فوجدنا منها نسخة خطية في الدار تحت رقم ٥٦٣٦ أدب فقابلناها عليها فلم نجد زيادة »[3] .

وهذا يجعلنا نعتقد ان هذه القصيدة المخطوطة انما نقلت عن يتيمة الدهر ، والا لكانت كاملة ، ومن المحتمل جدا أن يكون الثعالبى قد روى اكثرها ولكنه اكتفى بما رواه عنها • وعلى كل حال فان ما بقى من هذه القصيدة يعطينا صورة يمكننا ان نتعرف من خلالها على كثير من تصرفات هذه الزمرة وطريقة معيشتهم •

وقبل ان ننتقل الى دراسة هذا الشعر ، نحب ان نتعرف فى البداية أسباب هذه الظاهرة الادبية التى برزت كفن مستقل فى هذا العصر ، حتى صار الناس يتقبلونها ويأنسون بها مع ما فيها من سخف ورفث ، يقول آدم متز « ومما هو عظيم الدلالة ، اننا لا نجد فى الشعر العربى مكانا للمكدين الطوافين قبل القرن الرابع الهجرى»(٤) • على ان هذه الظاهرة لم تكن بارزة فى الشعر وحده ، وانما فى النثر ايضا ، فقد كان الكتاب كاخوانهم من الشعراء يقصدون الى الفكاهة قصدا ولا يعترفون بالايماء والتلميح فى كثير مما يكتبون « وذوق الفكاهة يغلب على كتاب القرن الرابع الهجرى ، وانهم كانوا يعمدون الى هذا الفن ••• وان الفكاهة اصبحت فناً من فنون القول »(٥) • وامام شيوع هذه الظاهرة وطغيانها ، نجد انفسنا ملزمين لتلمس الاسباب التى دعت الى اقبال الادباء عليها فى هذا الوقت بالذات ، وهذا بطبيعة الحال يجرنا الى معرفة العصر الذى ظهرت فيه ، معرفة سريعة، لان همنا سيكون منصبا على دراسة هذه الظاهرة من خلال الشعر كما قلنا • ذكرنا قبل قليل ان هذه الظاهرة برزت فى القرن الرابع الهجرى ، وما كان لها ان تظهر قبل هذا العصر ، أما نوادر الطفيليين والحمقى التى أوردها الجاحظ فى كتبه ، فلا يمكن مقارنتها بهذا الفن الجديد ، ذلك ان الجاحظ يأتى بهذه النوادر عرضا لكى يدفع السأم والملل عن قرائه الذين ضجروا من الكتابة المغرقة فى الجد ، والتى نجدها فى كتب العلماء والفقهاء « فكان الجاحظ اذا تخوّف ملل القارى وسآمة السامع خرج من جد الى هزل

ومن حكمة الى نادرة لطيفة »[٦] فى حين تعاطى هذا الادب فى القـــرن الرابع الهجرى عدد كبير من الشعراء والكتاب يزدون على ما سواهم فى الفنون الاخرى ، وقد اهتمت اليتيمة بهذا الشعر فكـانت تسـميه بالادب العصرى وبأدب الظرف والفكاهة ، وراحت تكيل له ولاصحابه من الصفات ما جعلنا نعتقد انه كان طبيعيا ومقبولا فى عصره الى حد بعيد ، رغم ما فيه من سخف لا يليق ، انه مجرد هزل ودعابة لا يتعدى حدود القول ولايدخل فى المجال العملي يقـول الثعالبي وهو يدافع عن رأيه هذا « ذكر الاعضاء لا يؤثم وانما الاثم فى ذكرها عند شتم العورات وقول الرفث فى اكل لحوم الناس وقذف المحصنات »[٧] .

لقد كانت الاحوال العامة فى هذا العصر ملائمة كل الملائمة لظهور هذا الادب ، حيث انقسمت المملكة الاسلامية الى دويلات صغيرة متناحرة فيما بينها ، فهناك « دولة فارس والرى واصبهان بيد آل بويـه ، وكرمـان لمحمد بن الياس ، واليمامة والبحرين بايدى القرامطة ، وجرجان لقابوس وشمكير ، والموصل وديار بكر وربيعة بأيدى الحمدانيين ، ومصر والشام للاخشيديين والاندلس بيد عبدالرحمن الناصر الاموى ، وخراسان لآل سامان ، والاهواز وواسط والبصرة بيد ابن رائق ، ولم يبق بيد الخليفـة غير بغداد والسواد »[٨] التى احتلها معز الدولة البويهى سنة ٣٣٤ هـ كما هو معروف ، وبهذا انحسرت سلطة الخليفة واصبح الامر بأيدى البويهيين، فوقعت السلطة تحت رحمة اياد أجنبية ، قال الخليفة الطائع « أنا ليس لي غير الخطبة فان أحببتم أن اعتزل اعتزلت »[٩] وكان البويهيـون يعيّنون للخليفة كاتبا يدير اقطاعاته واخراجاته « ولم يكن لهم وزير ولا أمر ولم يسلموا من عنت البويهيين ، فقد جرت العادة ان تنهب دار الخلافة بعـد موت الخليفة او خلعه حتى لا يبقى فيها شيء البتة»[١٠] أما ما كان يحدث للوزراء والقضاة والعمال فأمر وأدهى من هذا كله ، لانهم يحصلون على

مناصبهم تلك عن طريق الرشاوى والتأجير ، وقد حوت كتب التاريخ الكثير من النوادر الغريبة فى هذا المجال .

فى مثل هذه الاجواء تنعدم المسؤولية ، وتترك النفوس على هواها ، لتجد حرية فيما تقول وتعتقد ، وتظهر الآراء الغريبة التى تشكك فى المعتقدات والمثل ، فالقرامطة الذين ظهروا بصورة عارية فى هذا العصر ، احدثوا كثيرا من المعتقدات التى تنافى الاسلام وروحه ، ونفثوا سمومهم بين كثير من الناس ، وقل مثل هذا فى الفرق المختلفة ، وسيل لا ينقطع من الادعياء ، هؤلاء جميعا كانوا يجدون حرية مطلقة فى وقت أمنوا فيه العقاب ، وصاروا لا يلتفتون الا لما يشبع نهمهم من اللذة والمتعة . أما المسؤولون فقد شغلوا انفسهم كذلك باللذة والمتعة ، وتعاطوا هذا الشعر ، واحاطوا مجالسهم بكل فكه وظريف ، وتركوا لانفسهم الحرية من ان تنغصها هذه الرسميات ، قال صاحب كشف أسرار الباطنية « ليس كولاة الامور من أهل زماننا هذا الذين غرقوا فى اللذات واتبعوا الشهوات ولم يرغبوا فى المكارم والخيرات »[١١] وربما كانوا محقين فى هذا كله اذا نظرنا الى طريقة تعيينهم أو طريقة مصادرتهم ، وهم بعد هذا لا يعرفون متى تدور عليهم الدوائر ، فراحوا يعبون من اللذة حتى ينسوا المستقبل المظلم الذى ينتظرهم ، فالخليفة الراضي مثلا كان يطرب للشعر اللاهي ويتعاطاه بنفسه وهو القائل :

قم فاسقني بين خفق الناى والعود ... ولا تبع طيب موجود بمفقود
كأسا اذا ابصرت فى القوم محتشما ... قال السرور له قم غير مطرود
نحن الشهود وخفق العود خاطبنا ... نزوج ابن سحاب بنت عنقود[١٢]

وكان مجلس الوزير المهلبي يضم كل فكه وظريف منهم ابو اسحق الصابي وابن الورد « وهو من عجائب الدنيا فى المطايبة والمحاكاة يخدم مجلس المهلبي ويحكي شمائل الناس والسنتهم فيؤديها كما هى فيعجب

الناظر والسامع ويضحك الثكلان »[١٣] ، كما كان ابو اسحق الصابي المذكور ، وهو كاتب الانشاء فى الدولة البويهية ، يتعاطى هذا الشعر على سبيل الفكاهة والظرف ، وهزله فى رسائله مشهور ، فقد اتخذ من الطفيليين وسيلة لظرفه وفكاهته « ومن اظرف ما كتب على طريق الهزل والفكاهة ، عهد التطفل ، وهو عهد انشأه ابو اسحق على لسان طفيلي اسمه عليكا كان يقع على مائدة معين الدولة بين بويه »[١٤] ومن شعره فى هذا المجال قوله :

أبصرت في رشد وقد أحببته ... رشدى ولم أحفل بمن قد ينكر
يا لائمي أعلى السواد تلومني ... من لونه وبه عليك المفخر
دع لي السواد وخذ بياضك انني ... أدرى بما آتى وما أتخير[١٥]

وربما كانت النادرة التي يرويها الثعالبي عن هؤلاء المسؤولين خير ما يمكن أن نعول عليه هنا ، ننقلها بالنص لاهميتها « كان القاضى التنوخي ريحانه الندماء وتاريخ الظرفاء وكان من جملة القضاة الذين ينادمون المهلبي فى الاسبوع ليلتين على اطراح الحشمة والتبسط فى الوصف والخلاعة وهم ابن قريعة وابن معروف والقاضى التنوخي وغيرهم ، وما منهم الا ابيض اللحية طويلها ، وكذلك كان المهلبى فاذا تكامل الانس وطاب المجلس ولذ السماع ، واخذ الطرب منهم مأخذه ، وهبوا ثوب الوقار للعقار ، وتقلبوا فى اعقاب العيش بين الخفة والطيش ، ووضع فى يد كل واحد منهم كاس ذهب من ألف مثقال الى ما دونها مملؤا شرابا قطربليا أو عكبريا ، فيغمس لحيته فيه بل ينقعها ، حتى تتشرب أكثره ويرش فيها بعضهم على بعض ، ويرقصون اجمعهم وعليهم المصبغات ومخانق البرم والمنشور ، ويقول كلما كثر شربهم : هر ، هر ، واياهم عني السرى الرفاء :

مجالس ترقص القضاة بها ... اذا انتشوا فى مخانق البرم
وصاحب يخلط المجون لنا ... بشيمة حلوة من الشيم

تخضّب بالـراح شـيبه عبثـا   أنامـل مثـل حمـرة العنـم
حتى تخـال العيـون شـيبته   شـيبة فعلان ضرّجت بدم (١٦)

فلا غرو بعد هذا أن يكون لأدب الهزل سوق رائجة الى ولاة الامور ، فابن الحجاج وهو زعيم شعراء السخف بلا مدافع ، كان يتبختـر عـلى رؤوسـاء عصره رغم الرفث الذى فى شعره « كان ابن الحجاج يتحكم على الاكابر والرؤوساء بخلاعته ولا يحجب عن الامراء والوزراء مع سخافته ، يستقبلونه بالبشاشة والاكرام ، ويقابلون اساءته بالاحسان والانعام » (١٧) وذكر الثعالبي ان ابن الحجاج « كان موفور الحظ من الاكرام والانعام ، مجاب الى مقترحة من الصلات الجسام ، والاعمال المجدية التى ينقلب منها الى خير حال ، وقد كان طول عمره يتحكم على رجال الوقت ورؤساء العصر تحكم الصبي على اهله ويعيش فى اكنافهم عيشة راضية ، ويستثمر نعمـة صافية ضافية » (١٨) ، ومن يدرس ديوان هـذا الشاعـر المخطوط يلاحظ المدى المؤلم الذى ينحدر اليه الانسان بعد ان يعتاد هذا السخف ، وهكـذا هو ابن سكرة وابن لنكك والخبز أرزى وغيرهـم من شـعراء الظـرف والسخف الذي امتلأت بهم اليتيمة ، والذي يتمعن فى دراسة هؤلاء لا يجد فرقا بينهم وبين الشعراء المكدين لا من حيث الدافع فحسب ولكن من حيث الطريقة والاداء الفنى كذلك ، بل اننا نجد لهؤلاء الشعراء المغرقـين فـى السخف ، شعرا فى الكدية لا يقل عن الشعراء المكدين انفسهم . فهـم جميعا يذكرون انهم انما تعاطوا هذا الشعر تحت الحاح الظروف القاسية التى يحيونها ، فألجأتهم الى هذا العبث الغريب ، فضنك العيش والمجاعات الغريبة التى يحدثنا التاريخ عنها فى هذا القرن ، صارت تدفع الناس الى سبل ما كانوا يرتضونها لو كانت الامور طبيعية ، يذكر المقدسي « أن الخطب فى المسجد لا تسمع من صياح السوّال فى شيراز » (١٩) ، وهذا هـو نفس ما كان يصرح به المكدون واصحاب السخف ، وفى كثير من الاحيان تخرج

منهم أنات مريرة لتخبر عن وجود احساس دفين لا يختلف عن هذا الذى نجده عند غيرهم ، ومن المحتمل جدا أنهم لو وجدوا وسيلة شريفة يرتزقون منها لما ولجوا هذا الباب ، يقول الاحنف العكبرى ، وهو رأس المكدين فى مدينة بغداد :

عشت في ذلة وقلة مال ... واغتراب ومعشر انذال
بالاماني أقول لا بالمعاني ... فغذائي حلاوة الايمان

وقال مكد آخر :

الروح والراحة في الحمق ... وفي زوال العقل والخرق
فمن اراد العيش في راحة ... فليزم الجهل مع الحمق

ويصب ابن لنكك غضبه على الزمن الذى دفع به الى هذا السخف ، وهو اكثر اندفاعا من غيره فيقول :

زمان قد تفرّغ للفضول ... فسوّد كل ذى حمق جهول
اذا احببتم فيه ارتفاعا ... فكونوا جاهلين بلا عقول

وقال :

عجبت للدهر في تصرفه ... وكل أفعاله عجب
يعاند الدهر كل ذى ادب ... كانما .... أمه الادب(٢٠)

ولعلنا نحس باللوعة تعتصر قلب الشاعر ، بعد ان دفع الى هذا المسلك دفعا ، فهو فى اعماقه انسان آخر غير ما يبدو من خلال شعره السخيف ، لقد عجز الادب الجاد ان يهيأ لهم لقمة شريفة يقتاتون منها ، ولهذا نراهم يثورون على هذه الحياة كلما التفتوا الى انفسهم ، قال ابن الحجاج .

واضطرني جور زماني الى ... معيشة تزرى على الحرّ
والدهر قد صارت به هيضة ... فنحن غرقى فى خرا الدهر

وحينما كان يعاب على هذا السخف ، فانه يجد المبررات التى تسوّغ له هذا الاندفاع :

سيدى شكرك عندى مثل شكرى لألاهي
سيدى سخفي الذى قد صار يأتي بالدواهي
أنت تدرى أنه يد فع عن مالي وجاهي(٢١)

ويبدو ان هذا السخف قد ارغم الناس على ان يهابوهم ويخشوا لسانهم ، الامر الذى جلب لهم الكثير من المكاسب ، حتى اصبح شعرهم مهنة يرتزق منها ، ولا أهمية بعد ذلك لما قد يقوله الآخرون فيهم ، المهم ان يعيشوا ويأكلوا حيث يعيش الناس ويأكلون ، هم على غير استعداد لان يروا غيرهم يرفلون بأبهى الملابس ، ويأكلون من الطعام أطيبه ، بينما يعيشون هم وعوائلهم عيشة بؤس وفاقه .

ما حال من يأوى الى منزل أرفق منه المسجد الطائع
لا يرتوي العطشان فيه ولا يلحق ما يقتاته الجائع
وسوقه كاسدة بينكم لا مشتر فيها ولا بائع

وفى شعر ابن سكرة ما يشير الى ذلك صراحة ، فهو واضرابه من الشعراء والمكدين لم يكونوا على استعداد لان يتحملوا شظف العيش مقابل كلمة طيبة تقال لهم أو لا تقال :

ارى حللا وديباجا حسانا فالحظها بعين المستريب
وأعرف قصتي وأرد طرفي وفي قلبى أحرّ من اللهيب(٢٢)

وهذا هو نفس ما نلاحظه لدى الشعراء المكدين ، فالدوافع واحدة والهدف واحد كما قلنا ، بل ان شعراء السخف تعاطوا الكدية قولا وعملا ، وذهبوا فى هذا الباب الى أكثر مما ذهب اليه المكدون انفسهم ، فالشعر برمته قريب من السخف أو هو السخف بعينه ، فلا غرو ان يشتكى شعراء الكدية من الدهر ووطأته حيث اشتكى شعراء السخف ، فالاحنف العكبرى يذكر لنا صراحة ان ظروف الحياة هى التى دفعته الى هذا المنزلق وحينما نقرأ

شعره نلاحظ روحا انسانية عميقة لا يختلف فيها عن غيره من الناس :

رأيت في النـوم دنيـانا مزخرفـة مثل العروس تراءت فى المقاصير
فقلت جودي فقالت لي على عجل اذا تخلصت من ايدي الخنازير

وقال والحسرة تملأ نفسه :

العنـكبوت بنت بيتا عـلى وهن تأوى اليـه ومالي مثلـه وطـن
والخنفساء لها من جنسها سكن وليس لي مثلها الف ولا سكن

كيف يمكن ان يكون الاحساس ، انه يحسد العنكبوت لان لها بيتا تأوى اليه ، ويحسد الخنفساء لان لها سكنا تأوى اليه ، أما هو فلا وطـن له ، هكذا كتبت عليه الحياة ومن هنا راح هو واصحابه يحملون على الزمن الذى ارغمهم على ان يألفوا هذه الحياة ، حتى صارت جزءا منهم ، بـل لقـد اصبح عسيرا عليهم أن يتراجعوا الى الحياة المألوفة بعد أن عرف الناس منهم هذا السخف ، فاذا اضفنا الى هذا كله المكاسب التى حصلوا عليهـا ، وتقبل الناس لسخفهم هذا ، ادركنا كيف تحول هؤلاء الشعراء الى بهلوانات او ممثلين لاهم لهم الا ان يرضوا المشاهدين ولو على حساب كرامتهم ، ولهذا فقد جاء شعرهـم صريحـا لا يعترف بالايماء ، وانما يعبر شـاعرهم حيث يحلو له ان يقول ، ما دام يضحك الناس ويستلب اعجابهم مع ما قد يترتب على هذا الاعجاب من عطاء هو هدفهم الذى يسعون اليه ، وهـذه ظاهرة مهمة فى شعر الكدية ، فهو شعر تكسب لا على طريقة المدح المألوفة فى الادب العربى ، وانما على طريقة المكدين الذين راحوا يحرفون الاغراض المألوفة تلك الى ما يخدم قضيتهم . ومن الظواهر الاخرى التى نستدل عليها من خلال شعرهم ، ان المكدين لا يرتبطون بالوطن ، اذ لا وطن لهـم ، وانما يتنقلون حيث يحلو لهم أن يتنقلوا ، فتراهم يراعون الفصول فى اثناء ترحالهم ، فى الصيف ينحدرون الى المناطق الباردة ، وفى الشتاء الى المناطق الدافئة ، لا يهتمون بما قد يصادفهم فى تنقلهم هذا من عقبات ومخاطـر ،

فى وقت كثر فيه اللصوص وقطاع الطرق ، حتى ان كثيرا من المسافرين والتجار كانوا يرافقونهم حينما يقصدون الى مناطق معينة لكى يأمنوا اللصوص وقطاع الطرق ، قال الاحنف العكبرى :

على أنيّ بحمد الله في بيت من المجد
باخواني بني ساسان أهل الجدّ والحد

لهم أرض خراسان فقاشان الى الهند
الى الروم الى الزنج الى البلغار والسند
اذا ما أعوز الطرق على الطرّاق والجند
حذار من أعاديهم من الاعراب والكرد
قطعنا ذلك النهج بلا سيف ولا غمد
ومن خاف أعاديه بنا في الروع يستعدى(٢٣)

والبيت الاخير يجعلنا نعتقد ان الناس حينذاك لم يكونوا ينظرون اليهم نظرة جادة ، فهم مجرد مكدين لا يملكون شيئا يغرى الآخرين بهم ، ولهذا صار التجار والمسافرون يستترون بهم ويحتمون مما قد يتعرضون له فى اثناء الطريق • وكان المكدون يطوفون على البيوت ويتزيون بمختلف الازياء حتى يصلوا الى ما يريدون ، ولا يملكون طريقة أخرى غير هذه :

قد قسّم الله رزقي فى البلاد فما يكاد يدرك الا بالتفاريق
ولست مكتسبا رزقا بفلسفة ولا بشعر ولكن بالمخازيق
والناس قد علموا أني أخو حيل فلست أنفق الا فى الرساتيق

كما كانوا يتفننون فى الحيل التى يقومون بها ، وان جلبت الاذى لاجسامهم ، يذكر ابو حيان التوحيدى أن هذه الجماعة كانت تبيع ماء الوجه عن طريق ما تقوم به من حركات غريبة « انهم يبيعون الدين والمروءة واراقة ماء الوجه وكدّ الابدان وتجرّع الاسى ومقاساة الحرفة»(٢٤) ،

فحرفتهم تتطلب منهم كل ذلك ما داموا قد الفوا هذه الحياة ، وما دامت الحياة قد ألفتهم ، والناس من جانبهم يرحبون بهم حيثما حلوا لانهم يجدون فيهم مصدرا لتفكههم :

وقد صارت بلاد الله فى ظعني وفى رحلى
تغايرن بلبثي وتحاسدن على رحلى
فما انزلها الا على انس من الاهل

وخير من يمثل هذه الظاهرة شاعران معروفان ، هما الاحنف العكبرى وابو دلف الخزرجى ، ولم نعثر على غير شعرهما فى هذا المجال وهذا يعني أن انتاجهم قد ضاع اما لقلة العناية به واما لانه لم يكن ذا بال من الناحية الادبية والا لاهتم الثعالبى به كما اهتم بغيره من الشعر المعاصر ، واما ان يكون هذان الشاعران هما خير من يمثل هذه الطائفة فاكتفى بهما عن غيرهما .

والاحنف العكبرى الذى تمثلنا بنصوص مختلفة له هو « أبو الحسن كان اديبا وشاعرا مليح القول »[٢٥] وقد روى له صاحب المنتظم مقطوعة وقصيدة تخلوان من السخف ، قال عن القصيدة التى رواها له : « لم اسمع فى معناها مثلها » ننقل منها بعض الابيات لنؤيد ما ذهبنا اليه من أن هؤلاء الشعراء وقعوا تحت ظروف قاسية الجأتهم الى هذا المسلك ، قال الاحنف :

من اراد الملك والرا حة من همّ طويل
فليكن فردا من النا س ويرضى بالقليل
ويرى أن قليلا نافعا غير قليل
ويداوى مرض الوحدة بالصبر الجميل
يلزم الصمت فان الصمت تهذيب العقول
يذر الكبر لاهليه ويرضى بالخمول
أي عيش لامرىء يصبح في حال ذليل

الى آخر هذه القصيدة التى تدل على نفس أبيه لو أنه عاشها فعلا ، فمن خلالها نحس بثورة عارمة ، مبعثها ثورة الضمير الذى يستيقظ ، حينما يتاح له ان يستيقظ • ولم يذكر الثعالبى عنه الا القليل ، ومصدر هذا القليل هو الصاحب بن عباد الذى كان يتردد عليه الشاعر فيعجب به ايما اعجاب ، قال عنه « أبو الحسن عقيل بن محمد العكبرى شاعر المكدين وظريفهم ومليح الجملة والتفصيل منهم ، وقرأت للصاحب فى ذكره فأوردته وهو : لو انشدتك ما انشدنيه الاحنف العكبرى لنفسه ، وهو فرد بني ساسان لليوم بمدينة السلام وحسن الطريقة فى الشعر لامتلأت عجبا من ظرفه واعجابا بنظمه »[٢٦] ومن ثم يروى الثعالبى له مقطعات قصيرة تلائم منهجه العام فى اختيار الشعر ، وقد استهلكنا اكثر هذه الابيات فى مكانها الملائم ، وبقيت مقطوعة لها أهميتها فى دراسة هذا الشعر لما تحويه من الفاظ غريبة يبدو انها كانت مادة للتندر والظرف ، بالاضافة الى طريقة تمثيلهم امام الناس : وهي :

شربت بما خور ... على دفّ وطنبور
وصوت الطبل كردم ... وصوت الناى طليّر
فصرنا من حمى البيت ... كأنّا وسط تنوّر
وصرنا من أذى الصفع ... كمثل الصحي والعور
لقد اصبحت مخمورا ... ولكن أىّ مخمور

وليست هذه الابيات غير صورة لما كان على هؤلاء الشعراء ان يقوموا به ليضحكوا عليهم الناس ، فهم مجرد ممثلين هزليين عليهم ان يسلكوا أى سبيل لاضحاك مشاهديهم •

والشاعر الثانى الذى يمثل هذه الظاهرة هو ابو دلف الخزرجى « شاعر كثير الملح والظرف » مشحوذ المدية فى الكدية ، خنق التسعين فى الاطراب والاغتراب ، وركوب الاسفار الصعاب ، وضرب صفحة المحراب

بالجراب ، فى خدمة العلوم والآداب ، وفى تدويخه البلاد ، وكان ينتاب حضرة الصاحب ويكثر المقام عنده ... »[٢٦] والصاحب بن عباد كان يطرب لهذا الشعر ويحتفي باصحابه ، وكان يشجع أبا دلف على معارضة العكبرى ، كما ذكر الثعالبى ، الا اننا لم نعثر على شىء من ذلك ، والا لكانت الفائدة أشمل .

اما قصيدته الساسانية فيمكن النظر اليها على انها خير مصدر لدراسة المكدين وشعرهم ، فهى تشبه ان تكون ملحمة تحكى قصة جماعة من الناس لفظها الزمن فراحت تحيا حياة خاصة ، لها اصطلاحاتها وتصرفاتها ، وكأن بودنا ان ننقل أكثر هذه القصيدة الا ان المجال لا يسمح لنا بذلك . بدأ أبو دلف قصيدته هذه بأبيات تحس معها أن الشاعر يشعر بالمرارة من هذه الحياة العابثة ، التى الجأته واصحابه الى الغربة ، فلم يعودوا يستقرون فى مكان بعينه ، لقد اضاعوا فى الغربة اعمارهم ، وما دامت الحياة قد كتبت عليهم هذا الشقاء فلا أقل من أن يعترفوا بالواقع ويتحملوا الصعاب ، وينسوا الاهوال ، والا فما فائدة الحسرة بعد ذلك :

جفون دمعها يجرى ... لطول الصد والهجر
وقلب ترك الوجد ... به جمرا على جمر
ومن كان من الاحرا ... ر يسلو سلوة الحر
ولا سيما وفي الغر ... بة أودى أكثر العمر

ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك الى الحياة ذاتها ، حياتهم هم ، وما بها من صور ومشاهد ، مصدرها هذا التنقل والاغتراب الذى زودهم بتجارب وخبر كثيرة ، حتى يصل الى وصف حالته وحالة جماعته ، وكيف عبث الدهر بهم فصار يرميهم هنا وهناك ، كما تفعل الريح بكثبان الرمل . لقد اتحد اعضاء هذه الجماعة على السراء والضراء ، فكانوا يتقاسمون الخير والشر فيما بينهم ، وحينما يأنسون فى مكان ما ، فانهم يتركون لانفسهم الحرية

المطلقة فى كل شيء ، همهم ان يحصلوا على المتعة أنى وجدوها والا ضاق بهم المكان ورحلوا الى آخر غيره ، لا تقف أمامهم صعاب أو عقبات ، يختارون المناطق التى يكثر فيها الرى ، وكل الارض وطن لهم :

على أنيّ من القوم الـ ... بهالل بني الغرّ
بني ساسان والحامي الـ ... حمى في سالف العصر
تغربنا الى أنّا ... تناءينا الى شر
كما قد تفعل الريح ... بكثب الرمل في البرّ
فطبنا نأخذ الاوقا ... ت في العسر وفي اليسر
فما ننفكُ من صمي ... وما نفتر من متر (٢٨)
فاحلى ما وجدنا العيـ ... ـش بين الكمد والخمر
فنحن الناس كل ... الناس فى البرّ وفى البحر
اخذنا جزية الخلق ... من الصين الى مصر
اذا ضاق بنا قطر ... نزل عنه الى قطر
لنا الدنيا بما فيها ... من الاسلام والكفر
فنصطاف على الثلج ... ونشتو بلد التمر

ثم ينتقل الشاعر بعد هذا الى الوصف العملى لتصرفات جماعته بأدب صريح مكشوف ، تحس معه وكأنهم لم يعودوا يؤمنون بالمثل بعد ان ألفوا هذه الحياة ، كما لم يعودوا يؤمنون بالندم الى الحياة السوية ، فحياتهم كلها انحرافات شاذة وبخاصة فى المجال الجنسى ، فكل واحد منهم يرينا لونا غريبا فى الاثم والفجور وهو فى سبيل ذلك يتلون حيث شاءت له الظروف ، يظهر الجنون ، يتباله ، يضع التعاويذ ، يسحر النساء ، يتشاجر مع صاحبه ، وأمور أخرى غريبة فى بابها ، لكنها مألوفة عندهم ، ذلك هو سر المهنة اذا صح التعبير :

فنحن الميزقانيوّ ... ن لا ندفع عن كبر (٢٩)

هـم شـتى فسلني عنـ ـهم ينبيـك ذو خبـر
فمناكـل كمّاذ اللبـو سـات مـع الهـرّ
ومناكـل صـلاّج بكيـذ وافـر نكـر
قـد اسـتكفى بكفيـه عـن الثيب والبكـر
فلا يخشى مـن الاثـم ولا يؤخـذ بالمهـر
ولا يحـذر مـن حيض ولا حمـل عـلى طهـر
ومنا الكـاغ والكاغـة والشيشق فى النحر(٣٠)
ومـن دروز أو حـرّ ز او كـوّز بالدغر(٣١)
ومـن درّع أو قشـع أو دمـع فـي القـر(٣٢)

وهكذا يفضح ابو دلف الخزرجي سر المهنة لا فى هذه الابيـات فحسب وانما فى مواضيع اخرى من قصيدته هذه فيعطينا ادق التفاصيل عن كل حركة من حركات هذه الجماعة ، حتى اننا لنقف مندهشين أمام هـذه البدع الغريبة والحركات العجيبة التى لا يمكن ان تأتى على بال ، والحاجة أم الاختراع كما يقولون فهم فى سبيل ان يستدروا عطف الناس عليهم ويسلبوا أموالهم ، يمثلون أشق الادوار ويقومون بمختلف الاعمال دون النظر الى ما قد يلحقهم من ضرر ، فالابيات التالية تظهر لنا بجلاء بعض الاعمال الغريبة التى كانوا يقومون بتمثيلها والتـى اصبحت جـزءا مـن حياتهـم :

وحاجـور وكـذا يـا ت اهل الاوجـه الصفـر(٣٣)
ومـن شـطّب او ركّب للضربـات والعقـر(٣٤)
ومـن ميسـر أو مخطـر واسـتنفر للثغـر(٣٥)
ومـن قص لاسرائيـل او شـبرا عـلى شبر(٣٦)
ومناكـل قنّـاء عـلى الانجيـل والذكـر(٣٧)
ومـن يزنـق أو يختـق أو يذلـق بالدبـر(٣٨)

ومطـــــــــلي دم الاخ   مــع المصمــوغ كاليشــر

فالمكدى يضع البيض فى حجره ليسيل صفاره ، ويعصب رأسه حتى ينتفخ باعتباره مريضا ، وقد يجرح نفسه بالموس او يطلي جسمه باللـون الاسود لان الجن لطمته ، وربما لوى لسانه فى فمه ليوهم الناس ان الروم قطعوه وانه هرب من الثغور خشية من جورهم ، وفى احيـان كثيرة يعظ الناس ويقص عليهم قصص الانبياء أو يوهمهم انه كان مسيحيا أو يهوديـا فاسلم ، وقد يثقب بدنه ويخنق رقبته حتى ينتفخ رأسه وربما مشى عاريـا بعد ان يستعمل ادوية معينة لتخرج به بثور يمرض منها ، كل هذا فـي سبيل ان يستدر العطف عليه وهو يكدى . اما قصة المكدين مـع السـحر والدجل والشعوذة ودخولهم بيوت الناس وعبثهم بها وبأهلها فأمر يطول .

نكتفي بهذا القدر ، والا اصابنا الملل ونحن نقرؤ بقية القصيدة لمـا فيها من اصطلاحات غريبة لا عهد للغة بها ، لانها خاصة بهم ، وادبهم بعد هذا ادب شعبي ادخلوا فيه كثيرا من الاصطلاحات الخاصة بهم حتى ليمكن القول ان هذا الشعر كان يتداول بينهم على الاكثر ، وانهم لم يكونوا بصدد نشره أو اذاعته بين الناس والا افتضح امرهم ، كما اننا لا نجد فى هــذا الشعر ما يشير الى وجود صناعة لفظية أو معنوية ، ولهذا جـاء شـعرهم صادقا يعبر عن حياتهم التى لا تعترف بالصهرجة ، يقول آدم متز « وقد دخل فى الادب على ايدى المكدين شعر حر مزهر ترنموا به »(٣٩) .

ويذكر المؤرخون ان بديع الزمان الهمذانى استوحى مقاماته مـن هؤلاء المكدين ، ولهذا أوقف أكثرها على الكدية ، وجعل بطلها ابا الفتح الاسكندري المكدي ، ومن الممكن أن نعرف الكثـير عن هؤلاء المكدين من خلال دراستنا لمقامات بديع الزمان ، وبهذا يمكن اعتبارها مصدرا آخـر يضاف الى القصيدة الساسانية فى معرفة تصرفات هذه الجماعة   فأبو الفتح الاسكندري يمثل هذه الزمرة تمثيلا رائعا عن طريق ما يتحفه بديع الزمان

من حركات تمثيلية رائعة ، فبينما نراه ماجنا يضحك من المصلين والزهاد كما فى المقامة الاصفهانية اذا بنا نراه ناقدا وأديبا يعطي الناس رأيه فى الشعر والشعراء كما فى المقامة السجستانية والقريضية والجاحظية فى حين نراه فى المقامة السجستانية وغيرها واعظا ينصح الناس ويدلهم على طريق الخير • كما أفرد بديع الزمان مقامة كاملة عن الساسانيين وسماها المقامة الساسانية ومنها « احلتني دمشق بعض أسفارى ، فبينا أنا يوما على باب دارى ، اذ طلع عليّ من بني ساسان كتيبه قد لفّوا رؤوسهم،وطلوا بالمغرة لبوسهم وتأبط كل واحد منهم حجرا يدق بها صدره وفيهم زعيم لهم يقول وهم يراسلونه ، ويدعو ويجاذبونه ، فلما رآني قال :

اريد منك رغيفا	يعلو خوانا نظيفا
اريد ملحا جريشا	اريد بقلا لطيفا
اريد لحما غريضا	اريد خلا ثقيفا
اريد جديا رضيعا	اريد سخلا خروفا

وهكذا يستمر المكدي وهو يذكر ألوان الاطعمة حتى اذا انتهى من ذلك وأعطاه الناس بعض ما يجودون به ، انتقل الى غيرهم وراوية بديع الزمان يلاحقه ليعرف منه ان كان يكرر هذا الشعر مع آخرين ، فاذا به يقول شعرا غيره وهو :

يا فاضلا قد تبدى	كأنه الغصن قدّا
قد اشتهى اللحم ضرسى	فأجلده بالخبز جلدا(٤٠)

والذى لا شك فيه ان للحرمان أثرا كبيرا فى اهتمام المكدين بذكر الاطعمة لانهم يعيشون على ما تجود به أيدي الناس وربما تمر أوقات أو أيام لا يحصلون فيها على ما يقيم أودهم الامر الذى يجعل تعلقهم بالطعام شديدا يصل الى درجة التغزل به •

(١) الثعالبي ـ يتيمة الدهر ـ جـ٣ ص٣٥٨ ٠

(٢) لليتيمة اكثر من محقق واحد وقد اعتمدنا على تحقيق محي الدين عبدالحميد ، ولم نعتمد على المحقق الآخر الا فى الهامش التالى مباشرة ٠

(٣) الثعالبى ـ اليتيمة ـ جـ٣ ص٣٢٣ ـ تحقيق محمد علي عبداللطيف ٠

(٤) آدم متز ـ الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ـ جـ١ ص٤٩٤ ٠

(٥) زكي مبارك ـ النثر الثني ـ جـ١ ص١٤٦ ٠

(٦) المسعودى ـ مروج الذهب ـ جـ٤ ص١٩٦ ٠

(٧) الثعالبي ـ ثمار القلوب ـ ص١٨٠ ٠

(٨) القرماني ـ اخبار الدول ـ ص١٦٧ ـ والفخرى ص٢٨٨ ٠

(٩) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ـ ص٢٦٦ ٠

(١٠) ابن مسكويه ـ تجارب الامم ـ جـ٦ ص١٢٤ ٠

(١١) محمد ابن مالك ـ كشف اسرار الباطنية ـ ص٢١٥ ٠

(١٢) الامدى ـ المؤتلف والمختلف ـ ص٤٦٥ ٠

(١٣) الثعالبي ـ اليتيمة ـ جـ٢ ص٣٧٨ ٠

(١٤) زكي مبارك ـ النثر الفنى ـ جـ١ ص١٤٢ ٠

(١٥) ابو احمد العباسي ـ معاهد التنصيص ـ جـ١ ص١٥٧ ٠

(١٦) الثعالبى ـ اليتيمة ـ جـ٢ ص٣١ ٠

(١٧) ياقوت ـ معجم الادباء ـ جـ٩ ص٢٠٧ ٠

(١٨) الثعالبي ـ اليتيمة ـ جـ٣ ص٣٢ ٠

(١٩) المقدسى ـ أحسن التقاسيم ـ ص٤٢٩ ٠

(٢٠) الثعالبي ـ اليتيمة ـ جـ٢ ص٣٤٩ ٠

(٢١) مخطوطة ديوان ابن الحجاج ـ مكتبة الاوقاف ـ

(٢٢) الثعالبي ـ اليتيمة ـ جـ٣ ص٢٤ ٠

(٢٣) ن ٠ ف جـ٣ ص١٢٢ ٠

(٢٤) ابو حيان التوحيدى ـ الامتاع والمؤانسة جـ٢ ص٤٣ ٠

(٢٥) ابن الجوزى ـ المنتظم ـ جـ٧ ص١٨٥ ٠

(٢٦) الثعالبي ـ اليتيمة ـ جـ٣ ص١٢٢ ٠

(٢٧) ن ٠ ف جـ٣ ص٣٥٧ ٠

(٢٨) فى القصيدة كلمات غريبة لاتضمها المعاجم ، شرح الثعالبى اكثرها ، وبعضها كلمات نابية لا يليق ان نذكر معناها هنا ٠

(٢٩) المزقانيون ـ المكدون ، مفردها ميزق ، وبعض الفاظ هذه الابيات مغرقة فى السخف من اراد معناها فليرجع الى اليتيمة ٠

(٣٠) الكاغ والكاغة ـ المتجانن والمتجاننة ٠ والشيشق : الحدائد والتعاويذ التى يلقونها على انفسهم ٠

(٣١) دروز : دار على السكك والدروب وسخر بالنساء ٠ وحرز : اذا كتب التعاويذ ٠ والمكوز : الذى يقوم فى مجالس القصاص فيأمر القاص اصحابه باعطائه ٠ الدغر : المقاسمة ٠

(٣٢) درّع : لحس الهريسة ٠ قشّع : اذا مشى وعينه الى الارض لطلب القطع ٠

(٣٣) الحاجور : البيضة يجعلها المكدى في حجره وهى تسيل ماءا اصفر ٠ الكذايات : العصابات توضع على الجباه ٠

(٣٤) شطب : عقر نفسه بالموسى ٠ ركّب : طلى جسمه بلون اسود ليوهم ان الجنّ لطمته ٠

(٣٥) ميسر : اذا كدّى على انه من الثغر ٠ مخطر : اذا بلع لسانه وأوهم ان الروم قطعوه ٠

(٣٦) الشبريات : القصص يرويها عن الانبياء ٠

(٣٧) القناءّ : الذى يوهم انه اسلم بعد ان كان نصرانيا او يهوديا ٠

(٣٨) يزنق : يثقب بدنه حتى يتورم ٠ يخنق : يخنق نفسه لكي ينتفخ رأسه ٠ يذلق : من يمشي عريان المؤخرة ٠

(٣٩) متز ـ الحضارة الاسلامية ـ جـ١ ص٤٢٥ ٠

(٤٠) محي الدين عبدالحميد ـ شرح مقامات بديع الزمان ـ ص١٠٦ ٠

المراجـــع

(١) الثعالبي ـ يتيمة الدهر جـ٢ القاهرة ١٩٥٦ · تحقيق محي‌الدين·

(٢) الثعالبى ـ يتيمة الدهر ـ القاهرة سنة ١٩٣٤ · تحقيق علي محمد عبداللطيف ·

(٣) آدم متز ـ ترجمة عبدالهادى ابو ريدة ـ الحضارة الاسلامية فـى القرن الرابع الهجرى ـ ط٤ بيروت ١٩٦٧ ·

(٤) زكي مبارك ـ النثر الفني ـ القاهرة ١٩٣٤ ·

(٥) المسعودى ـ مروج الذهب ـ القاهرة ١٩٤٨ ·

(٦) الثعالبي ـ ثمار القلوب ـ القاهرة سنة ١٩٠٨ ·

(٧) القرماني ـ اخبار الدول ـ القاهرة سنة ١٢٨٢ ·

(٨) الفخرى ـ ابن الطقطقا ـ القاهرة سنة ١٩٥٠ ·

(٩) السيوطي ـ تاريخ الخلفا ـ القاهرة سنة ١٣٥١ ·

(١٠) ابن مسكويه ـ تجارب الامم ـ القاهرة سنة ١٩١٤ ·

(١١) محمد ابن مالك ـ كشف اسرار الباطنيـة ـ جـ٢ ســنة ١٩٠٥ القاهرة ·

(١٢) الامدي ـ المؤتلف والمختلف ـ القاهرة سنة ١٣٥٤ ·

(١٣) ابو احمد العباسى ـ معاهد التنصيص ـ سنة ١٩٣٦ ·

(١٤) ياقوت ـ معجم الادباء ـ القاهرة سنة ١٩٣٨ ·

(١٥) المقدسي ـ احسن التقاسيم ـ سنة ١٩٠٦ ليدن ·

(١٦) ابن الحجاج ـ مخطوطة الديوان ـ بغداد مكتبة الاوقاف تحت رقم ٥٧٣٠ ·

(١٧) ابو حيان التوحيدى ـ الامتاع والمؤانسة ـ القاهرة سنة ١٩٣٩·

(١٨) ابن الجوزى ـ المنتظم ـ الاستانة ١٣٥٨ ·

(١٩) محى الدين عبدالحميد ـ شرح مقامات بديع الزمان ـ القاهرة سنة ١٩٦٢ ط٢ ·